

الواقع اللغوي لمدينة المدية عبر العصور

The linguistic reality of the city of Medea through the ages

أ/د صبارنور الدين جامعة سيدي بلعباس sabbar_nouredine@yahoo.fr	ط د/ يدو فوزية* جامعة سيدي بلعباس yaddou.fouzia2021@gmail.com
---	---

تاريخ الإرسال: 2021-08-20 تاريخ القبول: 2022-04-10 تاريخ النشر: 2022-05-13

الملخص:

يستعمل سكان المدينة لهجة اجتماعية ذات مميزات خاصة (تساعد على ظهور عدد من الكلمات التي تنتج عن طبقات اجتماعية مختلفة) يكون الغرض من استعمالها هو التميز، والاختلاف الطبقي بين الجماعات في المجتمع فاللهجات تختلف في البلد الواحد، فتكون ثمّة لهجة للطبقة الأرستقراطية، الحرفية، المثقفة... إلخ، وحتى في اللهجة الواحدة فتكون لهجة الشرق أو الغرب، أو الشمال، أو الجنوب، أو الريف أو المدينة، أو التل، أو البادية... ويطلق علماء اللسان على النوع الأول مصطلح اللهجات الاجتماعية، وهي تنشأ بسبب الفوارق الموجودة بين الناس في المستوى العلمي والثقافي، والبيئي، والاجتماعي، والعادات، والتقاليد، وكذا المهنة، هذه الفوارق هي التي سنقف عليها في المقال.

الكلمات المفتاحية:

مدينة، واقع لغوي، فتوحات واحتلال، لهجة .

Abstract:

The inhabitants of Medea use a social dialect with particular characteristics (that helps to bring out a number of words produced from different social classes) whose purpose is distinction, and the class difference between groups in the community. Dialects vary in the same country, so there are a dialect for aristocracy, for craftsmen, for educated people ... etc, meanwhile even in a single dialect, there can be a dialect for each of the east, the west, the north, the south, the country, the city, the hill or the desert ... Linguists call the first type "social dialects", It arises due to the differences between people in scientific, cultural, environmental, and social levels, customs and traditions, as well as professions. These differences are what we will tackle in this paper.

Keywords:

Medea, linguistic situation, conquests and occupation, dialect

I- ملحة تاريخية عن ولاية المدية

1- المدية المولد والتسمية:

تعطي المعالم الأثرية للمراحل التاريخية المختلفة لمدينة المدية— منها بعض بقايا التحصينات العسكرية، قصر الباي العثماني، دار الأمير عبد القادر، دار حفيد الأمير عبد القادر... الخ—صورة صادقة عن عراققة هذه المدينة، وأصالتها كما تبين أهميتها التاريخية، والاستراتيجية اللتين جعلتا منها محطة لأنظار الفاتحين المسلمين، ومطمعا للغزاة المستعمرين.

لقد شاعت رواية أن مؤسس مدينة "المدية" هو "بلكين بن زيري" حوالي عام 350 هـ¹. وتضيف الرواية أنه في القرن الرابع الهجري الموافق للقرن العاشر الميلادي امتد نفوذ الدولة الزيرية إلى مناطق شاسعة من بلاد المغرب الأوسط، فبلغت حدودها من تيارت غربا إلى الزاب وعاصمتها بسكرة شرقا، وكانت مدن المدية الجزائر ومليانة ضمن المدن التابعة لبني زيري.

فعندما تولى "زيري بن مناد" الحكم في تيارت عام 349 هـ/960م من يد الفاطميين سمح لابنه "بلكين" بإنشاء ثلاث مدن هي المدية (355هـ)، مليانة (360هـ)، الجزائر (362هـ) وظاهر الأمر أن "ابن زيري" لم يقيم بإنشاء هذه المدن الثلاث وإنما أدخل عليها تعديلات وإصلاحات، أضفت صفة الحضارة والرقي العمراني عليها.

إن هذه الرواية التي شاع ذكرها وتداولها بين الناس حتى كادت تصبح مسلمة غير قابلة للنقاش، أبطل مفعولها وتخلصت الأذهان من سيطرتها بفضل ما قدمته الأبحاث والدراسات الحديثة. هذا من جهة ومن جهة أخرى أكدت مدى قدم هذه المدينة— المدية— وعراققتها وتجزؤها في التاريخ الإنساني، فقد ورد ذكرها عند بعض المؤرخين العرب، وغير العرب الذين وصفوها بالعراققة فهذا أبو عبيد البكري الأندلسي—عاش في القرن الخامس الهجري— في كتابه "المسالك والممالك" يذكر أن مدينة المدية بلد جليل قديم²، وقال عنها "الحسن محمد الوزاني" الملقب بـ"الأسد الغرناطي"، والمعروف عند الغرب "Lion Africain" مدينة بناها الأفارقة في تخوم نوميديا على بعد نحو ثمانين ميلا من البحر المتوسط وتقع في سهل خصيب جدا، تحيط بها جداول ماء كثيرة وبساتين...³، يقدم وصفا لسكانها، ومساكنها قائلا: "...سكانها أثرياء لأنهم يتاجرون مع نوميديا، لباسا أنيقا، دورا جميلة..."⁴.

وها هو ذا مورمول "Mormol" — هو مؤرخ إسباني من القرن السادس عشر عاش مدة في المغرب الأوسط بين جيوش النصاري — يؤكد أن المدية مدينة عتيقة قديمة أسست في سهل خصيب جميل، وقد سبقت نشأتها ظهور مملكة بني زيري وهي أقدم من أشير⁵.

إن شهادة هؤلاء الباحثين المؤرخين والكاشفين المستعلمين توحى، وتؤكد مدى أصالة وعراققة— المدية — فشهادة الأسد الإفريقي برهان صادق، لأنه روى ما شاهدته عيناه لا ما سمعته أذناه تناقله الرواة والرحالة فوصف موقعها، وسكانها، ومعمارها، وما تميزت به عن غيرها من مدن ذلك الزمان، ونسبها إلى الأفارقة القدماء، فهم

الذين أسسوها-حسب رأيه -وأقاموا صروحها.

وتأتي شهادة "مورمول" في هذا السياق لتدعيم نظرية الأسد الإفريقي، فلقد فند هذا الأخير مقولة أن المدينة أسسها بنو زيري، إذ هي أسبق من هذا التاريخ بكثير، فهي أسبق إلى الوجود من مدينة أشير التي أسسها الأب "زيري" نفسه.

إن هذا التضارب في تاريخ ونسبة مدينة المدينة، رافقه اختلاف المؤرخين وتشعبهم في مصدر اسمها الحقيقي. فتعددت بذلك الروايات، واختلفت صيغها، وتميزت نسبتها. فهل كانت كلمة "المدينة" تسمية رومانية قديمة ذات أبعاد استعمارية قديمة أم أنها تسمية محلية أصيلة ذات معنى دلالي؟

هناك من المؤرخين من رأى أن تسمية "المدينة" آتية من الكلمة اللاتينية *Lambda*⁶ وهي القرية الرومانية القديمة التي سبقت في نفس المكان مدينة المدينة، ويقال أيضا أن اسمها مشتق من تسمية رومانية هي: "مدياس"، أو "أمدياس" وهي المدينة التي غزاها الحاكم الروماني "سبتم سفار" سنة 210م⁷.

أما المؤرخ الفرنسي "شارل أندري جوليان" *Charle andré Jullion* فيرى أن المدينة سميت باسم ملكة رومانية تدعى: "لبدية" أو "المدينة" وقد بين رأيه هذا في كتاب له بعنوان: "تاريخ إفريقيا الشمالية"، منطلقا من بعض الآثار التي وجدها الفرنسيون عندما كانوا يحفرون الأساس لمستشفى عسكري بالمدينة، إبان الحقبة الاستعمارية، فوجدوا بعض التحف الأثرية ورفات بالية، ومزهريه مرسوم عليها صورة امرأة جميلة، وبعض القطع الفخارية، ونقود من البرونز، وفانوس رمادية... إلخ⁸ وكلها آثار رومانية قديمة أكدت لبعض المؤرخين أن المدينة قديمة تعود إلى العهد الروماني، كما أوحى تلك الصورة على المزهريه أنها رمز الملكة الرومانية "لمدية" التي جعلت من اسمها رمزا لجمال هذه المدينة وسحرها.

غير أن هناك من يرى أن "المدينة" كلمة بربرية معناها: العلو، والارتفاع⁹، وذهب "ابن خلدون" الرحالة، والمؤرخ العربي المغربي المشهور في كتابه "العبر" أو ما يعرف بـ "تاريخ العلامة ابن خلدون" إلى أن المدينة تسمية لقبيلة بربرية وإليها تنسب التسمية فقال: "...ثم نحض بعدها إلى المدينة، وبها أولاد عزيز من توجين، فنازلها، وقام بدعوته فيها قبائل من صنهاجة يعرفون بلمدية واليهم تنسب..."¹⁰.

كما أن هناك رواية يغلب عليها الطابع الشفوي مفادها أن تسمية "المدينة" آتية من حرفه صناعة "المدي" أو "المديات" والتي تعني السكاكين، وهي صناعة اشتهر بها أهل المدينة قديما، ونطقت الكلمة بالأجنبية فكانت "Médéa".

أما الدكتور "شو" *Chou* فيرى أنها *Lamida* التي ذكرها "بطليموس"، غير أن باحثين آخرين يرون أنها المدينة الرومانية الحصينة التي وصفت في مجلس قرطاجنة عام 464 م بأنها مقام الأسقف¹¹.

ومهما يكن أصل التسمية - المدينة - فإنه ودون شك قد تحرف وتبدل عبر المراحل التاريخية الطويلة، ودل

ذلك

ودون أدنى ريب على عراقية هذه المدينة وضربها في أواخر تاريخ المغرب الأوسط، ولعله لواقيمت دراسات أكاديمية معمقة ومخيمات كشفية، لاكتشفت مواد أثرية هامة تزيد من عراقية هذه المدينة وتلقي الأضواء خاصة على فترة ما قبل الرومان، وما قبل التاريخ حتى.

2- المدية وتداول الممالك الإسلامية عليها:

لقد جعل الموقع الاستراتيجي من المدية محط أنظار الممالك الإسلامية التي قامت في بلاد المغرب، وقد ذكر الكاتب الفرنسي "H.guyon" في كتابه: "le département du titterie. Son passé, son histoire" أن منطقة المغرب الأوسط، ومدينة المدية الواقعة باقليم التيطري كانت محط أنظار هذه الممالك الإسلامية منذ بداية الفتوح.

فخضعت المدية في القرن الرابع هجري لبني زيري من صنهاجة- أعوان الفاطميين على الخوارج-وقد فضلهم الفاطميون على غيرهم لأنهم أقدر الناس على محاربة بدو الزناتة جيرانهم في الناحية الغربية.

وفي عهد المرابطين الذين هموا بالتوسع في منطقة المغرب، والذين جعلوا المدية أحد أهدافهم التوسعية فقد توقف زحفهم نحو المغرب الأوسط عند مدينة الجزائر بسبب استنجد أهل الأندلس بهم، فغيروا وجهتهم التوسعية في المغرب الى الجهاد في الأندلس، وكان هذا أحد الأسباب التي جعلت المدية تخضع في القرن الخامس الهجري، لحكم قبائل الثعالبة وهم قبائل عربية متنقلة من بطن المعقل حيث حكم "أبو الفتوح بن خنوش" الناحية بين التيطري والمدية.

لكنها أصبحت ضمن أملاك الدولة الموحدية في القرن السادس الهجري، فقد استطاع الموحدون توحيد بلاد المغرب الإسلامي من المحيط الأطلسي الى حدود طرابلس. وعندما انهار صرح الدولة الموحدية وكثر الثوار، والخوارج بتخومها خضعت المدية لملك "بني مرين" فترة من الزمن¹².

وفي القرن السابع الهجري خضعت المدية لحكم الزيانيين - مؤسس الدولة الزيانية هو "أبو يحيى يغمراسن بن زيان" وكان مهدها تلمسان - الذين سيطروا ردحا من الزمن على المنطقة الواقعة بين الونشريس، والسرسو، والمدية.

وفي أواخر القرن التاسع الهجري دب الضعف في أسس الدولة الزيانية بتلمسان، ولم يستطع ملوكها قمع الفتن الداخلية، ولا منع الأعراب من غزو أعمالهم، فانفصلت المدية عنهم وخرجت من حكمهم، ومالت الى أمير تنس في مطلع القرن العاشر الهجري-وهو أمير من الزيانيين استقر بعيدا عن تلمسان، وكان أقدر من ابن عمه ملك تلمسان على حماية المدية نظرا لقربه منها، و نفوذه الكبير فيها.

وقد زار المدية في هذه الفترة من التاريخ الرحالة المغربي الشهير "الحسن بن محمد الوزان"، واعجب بها

وبحفاوة الاستقبال فيها، وكرم ضيافة أهلها وتقديرهم لأهل العلم حيث قال: "...وقد أقمت نحو شهرين في مرح ونشاط كبيرين

وأكرمت أكثر من قبل أميرها، لأن الغريب إذا مر بالمدينة يكاد سكانها يجلسونه بالقوة، طالبين منه بتوسل، وابتغال أن يفصل في قضاياهم، ويجر عقودهم... وحصلت في هذين الشهرين على عشرات المناقيل، والبضائع، والنقود، والماشية حتى هممت أن أستقر بهذه المدينة..."¹³.

ولعل لهذا الاعتراف الواضح، والصريح دلالة بالغة على حياة الترف، والبذخ التي عرفتتها المدينة في عهد الزيانيين، وبرهان دامغ على مدى طيبة أهل المدينة، وصفاء قلوبهم، واتساع بيوتهم لاحتضان كل غريب، خاصة إذا كان من أهل العلم، والمعرفة.

3- المدينة في العهد التركي: 1516م-1830م

بعد الفوضى التي عمت المغرب الاسلامي في القرن السادس عشر الميلادي، والضعف الذي سرى في الدول القائمة به: بنوحفص في تنس، وبنوعبد الواد في تلمسان، وبنومدين في فاس - عقد الإسبان العزم على ضرب الإسلام في دياره بعد طرد المسلمين، من آخر مصر في الأندلس سنة 1492م. بسقوط غرناطة. فاحتل النصاري المرسى الكبير في 1505م، ووهران في 1509م، وبجاية في 1510م، واحتلوا كذلك "الصخرة الوسطى" "Le penon d Alger" في 1510م. فضاقت بذلك حال المسلمين خاصة بمدينة الجزائر مما اضطر شيخها "سالم التومي" ووجهائها لاستدعاء الأخوين "عروج"، و"خير الدين" لإعانتهم على مواجهة الإسبان، بعدما سمعوه عن الأخوين من حزم وإقدام في إنقاذ المسلمين.

بعد مجيء "عروج" إلى الجزائر وتنصيبه ملكا على المدينة بدأ في بسط نفوذه داخل البلاد، واحتل مدينة المدينة بعد أن هزم أميرها: "حماد بن عبيد" بمتيجة سنة 1517م، ثم قفل راجعا إلى الجزائر بعد أن خلف حامية بالمدينة مؤلفة من الأتراك وبعض الأندلسيين¹⁴. وفي 1518م خلفه أخوه "خير الدين" في إدارة البلاد وألحق الإيالة بالمملكة العثمانية، وعززها بتحصينات عسكرية هامة تدعى "النوبة"، وبعد ذلك فكر الأتراك في إدارة البلاد - الجزائر - فقسموها إلى بايلكات. فكان بايلك الجنوب وعاصمته "المدينة" أصغر البايلكات، وأدخلت عليه تنظيمات عديدة خاصة ما بين 1518م. 1775م، وحكمه لأول مرة "حسن بن خير الدين" بين 1526م 1567م حيث كان يقيم تارة بالمدينة، وتارة أخرى بـ "برج سباو" حيث توجد للقادة الأتراك مزارع، وبساتين بواد "إيسير" "Isser".

اعتلى عرش هذا البايك ما بين 1516م. 1775م حوالي ثمانية عشر بايا أبرزهم: الباي رجب (1548م)، الباي شعبان (1653م)، الباي فرحات (1663م)، الباي عصمان (1763م)، الباي سفطة (1775م).

في سنة 1775م وهو زمن حكم الباي سفطة حدثت تعديلات هامة على إدارة بايلك التيطري إذ وبعد سبع وعشرين سنة من الحكم التركي للمدينة بقيت هناك مشاكل هامة عالقة تعكر صفو الحكم، ونظامه بالمنطقة، ونذكر من بين أهم الأسباب، خروج قبائل "سباو" المتكررين الطاعة، والولاء لباي التيطري إضافة لثورات قبائل الجنوب المستمرة والفشل الدائم في السيطرة عليها، وإخماد نار فتنتها وأخيرا انسحاب عدد من القبائل من تحت اللواء التركي.

اضطرت هذه المشاكل وغيرها، الأتراك الى إعادة النظري نظام البايك الاداري-ونقصد هنا بايلك التيطري- فجرد بعد أعوام من منطقتي طابلات، والبويرة، وأصبح للباي مقر واحد هو المدية . وكانت المدية في عهد السلاطين الأتراك محاطة بسور عظيم تتخلله خمسة أبواب¹⁵ هي: باب الدزاير، باب القرط باب البركاني، باب لقواس، وأخيرا باب سيدي الصحرابي، وقد تخدم السور العظيم، وضاعت معه الأبواب الثلاثة ، ولم يسلم منها سوى باب لقواس، وباب الدزاير. لكن بقيت الأماكن التي تواجدت بها الأبواب سابقا محافظة على أسمائها.

بقيت المدية خاضعة للحكم التركي لفترة زمنية طويلة جدا، قدرها المؤرخون بنحو ثلاثة قرون وزيادة، حافظت المدية على مكانتها السياسية، والعسكرية، والاقتصادية الهامة باعتبارها عاصمة للإقليم، ومركزا تجاريا جامعا بين الشمال والجنوب، وظلت على هذا الحال حتى جاء الاحتلال الفرنسي الغاشم.

4- المدية والاحتلال الفرنسي البغيض

كان مصطفى بومزراق (1819م-1830م) آخر بايات التيطري، وكان ضابطا ماهرا وقائدا صنديدا، وشارك في أول صدام مع الجيش الفرنسي في وقعة "سطاوالي".

إن نجاح الحملة الفرنسية على مدينة الجزائر في 05 جويلية 1830م ترك انعكاسا سريعا على مدينة المدية، نظرا لموقعها الجغرافي القريب من العاصمة، وتمثل هذا الانعكاس في حالة الفوضى، والفراغ السياسي اللذين عرفتهما المدينة ما بين (1830م-1834م)، وذلك بسبب انعدام السلطة الحاكمة فيها، مما جعلها مفتوحة على طموح زعامات القبائل، وضغوط الأعراس المجاورة، وأطماع القوى الأجنبية المتمثلة في الاحتلال الفرنسي.

فالباي "مصطفى بومزراق" بعد عودته من هزيمة "سطاوالي"، وجد الوضع تغير في المدية، وإقليم التيطري عموما بسبب ثورة الأهالي، ورغم محاولاته للسيطرة على الوضع، إلا أن الحملة الفرنسية التي أرسلها "كلوزيل" Klousèl في 17 نوفمبر 1830م والمكونة من 10000 جندي منعت من ذلك.

على الرغم من فشل الحملة في احتلال المدينة إلا أنها أنهت حكم الباي "بومزراق" وعينت بعده بايا عميلا هو "مصطفى بن حاج عمر"، ولكن السكان رفضوا الحاكم الجديد، وهاجموا الحامية الفرنسية في المدينة، مما اضطرت الحاكم الفرنسي الجديد "بيرتزني" Bertzène - عين مباشرة بعد كلوزيل - الى سحب الباي العميل، ومعه الحامية من المدية في الفاتح من 1831م، وترك المدينة وراءه في حالة يرثى لها، ومن ثمة أصبحت البلاد مفتوحة على كل

الاحتمالات، ولمختلف الزعامات¹⁶.

حاول الحاج "أحمد باي" باي قسنطينة مدّ نفوذه نحو مدينة المدية فأرسل ممثلاً له هو "محمد الحاج" لكن هذا الأخير فشل في جلب طاعة أهل المدينة ونواحيها إلى "الحاج أحمد".

كما ظهرت بالمدينة تيارات أخرى في هذه الفترة، ما انفكت تحاول إيجاد نوع من الوصاية السياسية العسكرية على المدينة بتوجيه رأيها العام نحو القضية الوطنية، وتمثلت في جماعة "حضر مدينة الجزائر" الذين كانوا على صلة بحضر المدينة فـ"أحمد بوضرية" كان أصلاً من المدينة، وهو زعيم هذه الجماعة وكانوا يمنون السكان بالنجدة ويستفيدون من التجارة معهم وبذلك ظهر للحزب الوطني والعثماني في العاصمة امتداد في المدينة. لكن الفرنسيين نشطوا بقوة لبث الفرقة بين حضر المدينة، وحضر العاصمة مستعينين في ذلك ببعض العملاء، والخونة من زعماء الأعراس الذين حاولوا من خلالهم إيجاد قوة ثالثة، ترجح قوة النفوذ الفرنسي في المنطقة.

لكن بعد توسع الأمير عبد القادر نحو الناحية الشرقية ضم مليانة، والمدينة التي دخلها عام 1835م إلى ملكه، ونصب أخاه "محي الدين الصغير" حاكماً عليها مما أدى إلى زيادة تكهرب الجو بين الفرنسيين، والأمير عبد القادر فحاول "كلوزيل" للمرة الثالثة احتلال المدينة، فأرسل حملة عسكرية في مارس 1836م ليفرض على السكان الباي "محمد بن حسين" الذي عين من قبل السلطة الفرنسية، وكان رد فعل الأمير سريعاً، فهاجم أنصاره المدينة واستولوا عليها، وهكذا اشتد الصراع بين الأمير عبد القادر والغزاة الفرنسيين على هذه النقطة الحساسة ذات المكانة الاستراتيجية الهامة، وبعد معاهدة "التافنة" 1837م كانت المدينة من أملاك الأمير، وضمن حدود دولته، فجاءها من جديد، وعزل أخاه "محي الدين الصغير"، وعين بدله "محمد بن عيسى البركاني"، واستقبل فيها أعيان البلدة، ثم اتخذ قراراً مهماً هو جعل مقر الخليفة في مدينة المدية. ثم اتخذها في عام 1839م عاصمة لدولته في مواجهة الاستعمار الفرنسي، وكان هذا الإجراء دافعاً قوياً للفرنسيين الذين قرروا جعل مدينة المدية ضمن نفوذهم، فأرسل الحاكم العام "فالي" "Valier" إلى المدينة حملة عسكرية بتاريخ 17 ماي 1840م، فوجدها خالية على عروشها فحصنها، ووضع بها حامية بقيادة الجنرال "دوفيفي" "Duvivier"، إلى أن قدم إليها "بيجو" "Peugeot" في 01 أبريل 1841م، فلجأ "محمد بن عيسى البركاني" إلى الجنوب بعد أن تخلى عنه أعوانه، وفارقه جنوده وأصبحت بذلك المدينة تحت الحكم العسكري الفرنسي الذي استمر إلى غاية 1850م حيث طبق فيها النظام المدني الذي فسح المجال لمجيئ الجاليات إليها لممارسة الزراعة، خاصة في منطقة "لودي" "LOUDI"، والداميات "DAMIETTE".

وفي جوان 1854م، قررت السلطات الفرنسية جعل المدينة بلدية على رأسها شيخ منتخب. فكانت من المناطق التي استوطنها المعمرون الذين بلغ عددهم سنة 1847م 2322 معمر¹⁷، وقد نتج عن الاستيطان الفرنسي بمدينة المدية سلسلة من الإجراءات التعسفية طويلة فترة الاحتلال، لاسيما مصادرة أراضي السكان، والتي تعتبر المصدر الوحيد لحياة سكان المنطقة آنذاك. وبقدراً كانت هذه السياسة الهادفة لإذلال السكان تزيد من

بؤسهم، وتشريدهم، بقدرما زادهم عزيمة، وإصراراً على التمسك بأصالتهم، وقيمهم الروحية، حيث كان أهل المدينة كغيرهم يتفاوتون، في إرسال أبنائهم إلى الكتاتيب القرآنية، والزوايا التي لعبت دوراً كبيراً في الحفاظ على مقوماتهم الشخصية، والوطنية، ولهذا لم تجد الحركة في مطلع القرن الماضي أية صعوبة في استقطاب، وتعبئة المواطنين بمدينة المدية ضد الاستعمار، سواء من خلال نشاط الأمير خالد عندما كان قائداً للصباحية بالمنطقة، أو حركة جمعية العلماء المسلمين التي نشطت لإصلاحها الحضاري عن طريق مدرسة "الزوييرية الحرة"، التي أسستها الجمعية بوسط المدينة¹⁸، كما استطاع حزب الشعب نشر خلاياه ذات البعد الاستقلالي في ربوع المنطقة.

II - الواقع اللغوي لمدينة المدية عبر العصور:

إننا نعرف أن المدينة مدينة أصيلة ضاربة بجذورها في عمق التاريخ الإنساني، وهي تضاهي في نشأتها وتاريخها مدينة الجزائر العاصمة إذ أنها وبحكم موقعها الجغرافي القريب منها-العاصمة-عرفت مختلف الحضارات والشعوب التي مرت على العاصمة الجزائر، بمختلف عاداتها وتقاليدها، ولغاتها، دياناتها... الخ إنه ومن خلال التوطئة التاريخية السابقة التي قدمت، وأظهرت لنا مختلف الشعوب، والحضارات التي تعاقبت على منطقة المدية يترسخ عندنا أن هذا الاحتكاك، والتعايش الذي وقع بين مجموع هذه الحضارات، والشعوب مختلفة الألوان والألسنة. قد خلق بدوره احتكاكاً لغوياً بين مختلف لغات هذه الأخيرة. هذه الظاهرة، والتي كما هو معلوم وضعية لسانية تجعل الناطق-سواء فرداً أو جماعة-يستعمل لغتين، أو أكثر أثناء تواصله الخطاب مع الآخرين. إذ أن الاحتكاك هو الحدث الحقيقي المتسبب في ازدواجية اللغوية.

إن التعايش بين لغتين، أو أكثر ينتج عنه عدة ظواهر لغوية أخرى، كالانتقال اللغوي، أو التناوب اللغوي "code switching"، أو تغيير استعمال اللغات، أو استعمال إحدى اللغات دون سواها بعد إلغاء الأخرى، أو المزج الذي يعني إدخال صفات لغات في لغات أخرى غير الأولى¹⁹.

من المتعارف عليه عندنا أن القرطاجيين سكنوا منطقة المغرب العربي عامة، والمغرب الأوسط خاصة، وأحكموا سيطرتهم على طول سواحل الشمال الإفريقي، ومدّوا نفوذهم، وسلطانهم فيها، فأصبحت بذلك لغتهم اللغة الرسمية المستعملة في المكتوب، وكذا الحياة اليومية بالإضافة إلى اللغة البربرية -لغة السكان الأصليين لشمال إفريقيا- وبهذا عرفت هذه الحقبة من الزمن ازدواجية لغوية بين اللغتين البربرية والفينيقية. وجاء بعد الفينيقيين الرومان ليستوطنوا المكان، ويتخذوا من لغتهم اللغة الرسمية للبلاد، وتنحط بذلك اللغة الفينيقية إلى درجة البربرية ليستعملا كلغتين ثانويتين. مما جعل الوضعية اللغوية للبلاد في هذه الحقبة معقدة أكثر، فعرفت ثلاثية لغوية (لاتينية/فينيقية/بربرية)، وقد وُصف هذا التعدد اللغوي "مارسيلين عبو" فقال: "يظهر أن التعدد اللغوي كان هو القاعدة الأساسية في إفريقيا الرومانية"²⁰.

وبعد الرومان أتى الفاتحون العرب إلى شمال إفريقيا ليدخلوا الإسلام إلى المنطقة، وقيموا بين أهلها، فعرفت هذه الفترة من التاريخ استعمال اللغة العربية لغة رسمية، وفي المقابل استعملت العامية العربية في مختلف

جوانب الحياة اليومية إلى جانب البربرية. وبهذا يتضح لنا أن هذه المرحلة عرفت وضعية لغوية تميزت بالازدواجية اللغوية - *bilinguisme* - من جهة (العربية/البربرية) وثنائية لغوية من جهة أخرى بين (العربية الفصحى/ العامية). والثنائية اللغوية وهي ترجمة للمصطلح الأجنبي - *diglossie* - وهي حسب الباحث الأمريكي "شارلز فيرجيسون" حالة لغوية ثابتة نسبيا يوجد فيها فضلا عن اللهجات الأساسية التي ربما تضم نمطا محددا، أو أنماطا مختلفة باختلاف الأقاليم، نمطا آخر في اللغة المختلفة عالي التصنيف، وفي غالب الأحيان أكثر تعقيدا من الناحية القواعدية، فوقي المكانة، وهو آلة لكمية كبيرة ومحترمة من الأدب المكتوب لعصور خلت، أو جماعة سالفة. ويتعلم الناس هذا النمط بطرق التعليم الرسمية لكنه لا يستعمل من قبل أي قطاع من قطاعات الجماعة المحلية للمخاطبة أو المحادثة العادية.

وفي الفترة الممتدة بين القرن (15-19) جاء الأتراك إلى الشمال الإفريقي عامة وإلى الجزائر خاصة، كحماة الإسلام من الغزو الإسباني على الشواطئ الجزائرية فبعد أن استدعى شيخ الجزائر "سالم التومي" الأخوين "عروج" و"خير الدين" لمساعدتهم على الرد على الاعتداءات الإسبانية المتكررة على السواحل الجزائرية، انتصب "عروج" ملكا على مدينة الجزائر وشرع في مد نفوذه داخل البلاد، وبعد الإصلاحات المتعددة التي أدخلها على مختلف القطاعات صارت الجزائر عامة قطبا تجاريا هاما تقصده شعوب مختلفة الألوان والألسنة، هذا ما خلق تنوعا لغويا هاما بالمنطقة فكان تقريبا أكثر من تنوع الأجناس التي سكنت المكان²¹.

وقد استعمل الأتراك - السادة وقتئذ - اللغة العربية الفصحى لغة رسمية للبلاد بينما كانوا يتحدثون فيما بينهم باللغة التركية الشرقية²². فالأتراك لم يفرضوا لغتهم على أهل البلاد، فكانت العربية بشطريها الدارجة والفصحى أكثر هيمنة في الاستعمال اللغوي، خاصة وأنها كانت متعلقة تعلقا شديدا بالدين، والتعليم. لقد خلق هذا التعايش بين الأجناس فيما بينهم احتكاكا لغويا بين ثلاث لغات متباينة هي العربية، والتركية، والبربرية كما خلق وضعيات لغوية:

- تعددية لغوية بين العربية، التركية، البربرية.

- وثنائية لغوية بين العربية الفصحى/الدارجة، البربرية/لغة بني زاب.

وبعد الأتراك أتى الفرنسيون مستعمرين البلاد، ليحدثوا فيها تغييرا جذريا في مختلف النواحي عامة، وعلى الوضعية اللغوية خاصة، ففرضوا التعليم باللغة الفرنسية على العباد، وجعلوها لغة رسمية للبلاد، بينما تفهقرت اللغة العربية لتصير لغة أجنبية في عقر دارها، لا يدرس بها إلا في بعض الزوايا، والكتاتيب القرآنية التي بقيت محافظة عليها.

فبموجب القرار الذي أصدرته الحكومة الفرنسية سنة 1883م قررت عدم السماح بتدريس اللغة العربية لإخراج ساعات التدريس في الأقسام²³.

وهكذا فإن الحقبة الاستعمارية تميزت بتعددية لغوية بين اللغات: الفرنسية، والعربية ونوعا ما التركية، والبربرية

وثنائية لغوية بين العربية الفصحى/الدارجة، كما تميزت هذه الحقبة أيضا بظهور تنوع لهجي للغة الفرنسية. وفي المدية المستقلة 1962م، مالا يختلف فيه اثنان أن مخلفات الاستعمار الثقافية، واللغوية لا يزال يعاني منها المجتمع الجزائري عامة والمداني خاصة في كل المستويات التعليمية منها، واليومية، و... إلخ، حيث لا تخل اللغة اليومية أبدا من بعض المصطلحات الفرنسية بالرغم من أن اللغة العربية هي اللغة الرسمية دستوريا أما الفرنسية فتعلم كلغة أجنبية، ويمكننا القول إن هذه الفترة من التاريخ اللغوي، لمنطقة المدية تميزت بثنائية لغوية بين العربية الفصحى/الدارجة، وتعدد لغوي بين العربية الفصحى/الفرنسية.

إن تعايش مختلف اللغات التي أشرنا إليها سابقا قد خلق وضعية لغوية معقدة في الجزائر عامة، حيث إنه في وسط البلاد اقترض عدد مهم من الألفاظ التركية في لغة الخطاب اليومي، وفي غرب البلاد نلمس آثار اللغة الإسبانية على ألسنة أهل وهران، وماجاورها من ولايات الغرب، نظرا للعدد الكبير للإسبان الذين استعمروا المكان في فترة سابقة من التاريخ أما في الشرق الجزائري فنلمس آثار اللغة الإيطالية، والتي ظلت لفترة من الزمن في احتكاك دائم مع اللغة العربية، كل ذلك جعل بعض المصطلحات اللغوية تتسرب من اللغة الإيطالية إلى اللغة اليومية للمجتمع الجزائري²⁴.

ولدت ظاهرة الاحتكاك اللغوي ظاهرة لسانية أخرى هي الانتقال اللغوي هذه الظاهرة التي شرح مفهومها اللساني: "phenelope Gardner chloros"، قائلا: "يوجد تغير الوضع لأن أغلبية المجتمعات تستعمل أكثر من لغة واحدة، وأن كل لغة من هذه اللغات لها بنيتها الخاصة بها بالإضافة إلى ذلك كل واحدة تحمل لهجات محلية أو اجتماعية أو تنوعات لهجية أو لهجات مهنية مختلفة"²⁵. والانتقال اللغوي، أو التناوب اللغوي – Alternance de code – هو أن يكون هناك وضعيتين لغويتين أو أكثر حاضرتين في خطاب واحد، أي أن هناك تناوب في قطع الخطاب المتعددة الأصل اللغوي. كما لا يفوتنا الحديث عن ظاهرة لغوية أخرى هي ظاهرة المزج اللغوي. "code mixing" وهي استراتيجية لغوية تبليغية تقتضي أن المتكلم في اللغة (س) يقوم بتحويل، أو نقل قواعد، أو عناصر اللغة (س) إلى اللغة (ع) في بعض من مستوياتها (الإفرادية، أو التركيبية، أو الصوتية، أو الدلالية...) سواء أدخلت هذه العناصر في النظام اللغوي للغة (ع)، فتعتبر دخيلة²⁶ أو لم تدخل.

يستعمل سكان المدية لهجة اجتماعية ذات مميزات خاصة (تساعد على ظهور عدد من الكلمات التي تنتج عن طبقات اجتماعية مختلفة) يكون الغرض من استعمالها هو التميز، والاختلاف الطبقي بين الجماعات في المجتمع²⁷ فاللهجات تختلف في البلد الواحد، فتكون ثمة لهجة للطبقة الأرستقراطية، الحرفية، المثقفة... إلخ، وحتى في اللهجة الواحدة فتكون لهجة الشرق أو الغرب، أو الشمال، أو الجنوب، أو الريف أو المدينة، أو التل، أو البادية... ويطلق علماء اللسان على النوع الأول مصطلح اللهجات الاجتماعية dialects sociaux، وهي تنشأ بسبب الفوارق الموجودة بين الناس في المستوى العلمي والثقافي، والبيئي، والاجتماعي، والعادات، والتقاليد، وكذا المهنة... وقد تذهب بعض اللهجات بعيدا، فيشتد انحرافها عن الأصل الذي انبثقت منه، وتتسع رقعة الفرق بينها

وبين أخواتها²⁸ حتى تكاد تصبح لغة مبهمه غير مفهومه لدى العامة من الناس، لا يفهمها إلا مستعملوها، ومن احتك بهم في الميدان كما هو الحال في المعاجم اللغوية التي يستعملها الحرفيون وأصحاب الصنائع إذ يوظف المشتغلون بالميدان ألفاظا ومصطلحات لغوية في معجمهم اللغوي، تكاد تكون مبهمه لا يفهمها في كثير من الأحيان إلا من كان منهم، أو من كان في احتكاك دائم معهم.

الهوامش:

- 1- مولاي بلحميسي: مقال مدينة المدية عبر العصور، مجلة الأصالة، العدد 2، ربيع الأول 1391هـ/ماي 1971.
- 2- أبو عبيد البكري الأندلسي: المسالك والممالك، نقلا عن مقال مدينة المدية عبر العصور للدكتور مولاي بلحميسي.
- 3- الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بالأسد الإفريقي: وصف شمال إفريقيا، ترجمة محمد حجي، محمد لحضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ج 2، ص 41.
- 4- المرجع نفسه الصفحة نفسها.
- 5- Mormol : l'afrique, tome II, p: 411
- 6- مولاي بلحميسي : المرجع نفسه.
- 7- محمد مختار اسكندر : المحاضرة التي ألقاها في الملتقى السادس للفكر الإسلامي المنعقد بقصر الصنوبر، 13 جمادى الثانية 1392هـ/1972.
- 8- Henri Guyon : L'histoire de L'Afrique du Nord, Médea, 1958, Page 27
- 9- مولاي بلحميسي : المرجع نفسه.
- 10- خلدون عبد الرحمن بن محمد، تاريخ العلامة ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر 1968، م 7 ص 192.
- 11- ف ملتسان، أضواء على مدينة المدية، ترجمة أبو العيد دودو، مجلة الثقافة، وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر، مارس 1972، العدد 7، ص 41.
- 12- احمد سليمان، مقال اخبار المدية عند المؤرخين العرب، جريدة المساء، العدد 27، ماي 1987
- 13- الحسن بن محمد الوزان الفارسي: وصف إفريقيا، مرجع سابق، ص 42
- 14- عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ المدن الثلاث الجزائر، المدية، مليانة، مطبعة صاري بدر الدين وأولاده، الجزائر ط 2، 1972م، ص 326.
- 15- Conty : - guide pratique, Alger, Tunisie, conty, Paris, p76
- 16- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط 1، 1992م، ج 1، ص 135.
- 17- عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ المدن الثلاث، مرجع سابق، ص 336.
- 18- من تقرير ولاية المدية، لجنة كتابة التاريخ، الولاية الرابعة، ملتقى نادي الصنوبر، 1998م.
- 19- Dubois jean : dictionnaire de linguistique, librairie Larousse, 1973, P119.
- 20- Morsly Dalila: Alger plurilingue, plurilinguisme, N12, pp 51-52
- 21- المرجع نفسه ص 56.
- 22- محمد راجحي الزغلول. ازدواجية اللغة : نظرة في حاطر العربية وتطلع نحو مستقبلها في ضوء الدراسات اللغوية، اللسان العربي، المجد 18، ج 1، 1980، ص 21
- 23- Morsly Dalila: Alger plurilingue, op cit P62.
- 24- Khaoula Taleb Ibrahim: Les Algériens et leur (s) langue (s), 2 em/ed -El hikma, Alger , 1997, P 34 .
- 25- Phenelope gardner-chloros: code Switching,, approche principales et perspective, la linguistique -SLF volume 19, fascicule 1, 1983, P21.
- 26- Khaoula Taleb Ibrahim: Les Algériens et leur (s) langue(s), op Cit ,P 107
- 27- Dubois jean : dictionnaire de linguistique ; op cit, p47

28- أحمد لطفي السيد : اللغة العربية في إطارها الاجتماعي، دار المعارف، مصر، 1955، ص 125.

قائمة المراجع:

1. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط1، 1992م.
2. أحمد سليمان، مقال اخبار المدية عند المؤرخين العرب، جريدة المساء، العدد 27، ماي 1987.
3. أحمد لطفي السيد: اللغة العربية في إطارها الاجتماعي، دار المعارف، مصر، 1955.
4. الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بالأسد الإفريقي: وصف شمال إفريقيا، ترجمة محمد حجي، محمد لخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ج.2.
5. خلدون عبد الرحمن بن محمد، تاريخ العلامة ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر 1968.
6. عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ المدن الثلاث الجزائر، المدية، مليانة، مطبعة صاري بدر الدين وأولاده، الجزائر ط2، 1972م.
7. ف ملتسان، أضواء على مدينة المدية، ترجمة أبو العيد دودو، مجلة الثقافة، وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر، مارس 1972.
8. محمد راجحي الزغلول. ازدواجية اللغة: نظرة في حاطر العربية وتطلع نحو مستقبلها في ضوء الدراسات اللغوية، اللسان العربي، المجد 18، ج1، 1980.
9. محمد مختار اسكندر: المحاضرة التي ألقاها في الملتقى السادس للفكر الإسلامي المنعقد بقصر الصنوبر، 13 جمادى الثانية 1392هـ/1972.
10. مولاي بلحميسي :مقال مدينة المدية عبر العصور، مجلة الأصالة، العدد2، ربيع الأول 1391هـ/ماي 1971.
11. Conty : - guide pratique, Algerie, Tunisie, conty, Paris
12. Dubois jean : dictionnaire de linguistique, librairie Larousse ,1973
13. Henri Guyon : L'histoire de L'Afrique du Nord, Médea, 1958
14. Khaoula Taleb Ibrahimi: Les Algériens et leur (s) langue (s), 2 em/ed -El hikma, Alger , 1997
15. Morsly Dalila: Alger plurilingue, plurilinguisme, N12
16. Phenelope gardner-chloros: code Switching,, approche principales et perspective, la linguistique -SLF volume19, fascicule 1,1983